الفصل الرابع

راسبوتين مشكلة سياسية

لم يكن سؤال ما إذا كان راسبوتين قديسا أم شريرا Saint or Sinner مجرد سؤال يتصل برجل واحد هو راسبوتين ، ولكن هذا السؤال قد تَحوَّل إلى مشكلة متعددة الأطراف فى الدولة الروسية القيصرية قبل الثورة البلشفية مباشرة. والسبب فى تعدد الأطراف المعنية بهذا السؤال أو هذه المشكلة يكمن فى أن راسبوتين لم يكن مجرد فلاح روسى انتقل من الريف إلى المدينة ، ولكن راسبوتين كان قد نشأت بينه وبين البلاط الروسى فى العاصمة صلة وثيقة، وكان قد أصبح شخصا بالغ الأهمية بالنسبة للقيصر نيقولا الثانى وبالنسبة لزوجته الإمبراطورة ألكساندرا لاعتقادها أن حياة ابنها ولى العهد الأمير أليكسى المعتل الصحة كانت ترتبط بمدى قرب راسبوتين منه . ولو مات الأمير أليكسى كان عمه الذى كانت الإمبراطورة ألكساندرا تكرهه بشدة سيثب إلى عرش روسيا ، ومن هنا كان تمسكها ببقاء راسبوتين فى العاصمة «سان بطرسبرج» بل تمسكها بدخوله إلى القصر الملكى الروسى أمرا ضروريا لايمكن الاستغناء عنه من وجهة نظر الإمبراطورة التى كانت شديدة التأثير على زوجها ، ولم يكن زوجها يقل عنها حرصا على حياة ولى العهد الذى كانت حياته ترتبط ارتباطا وثيقا بذلك الرجل المبارك ، الذى كانت الإمبراطورة تؤمن إيمانا عميقا بأنه قديس ، وكانت تقول :«هكذا يكون القديس . يتشكك الناس كثيرا فى قداسته !»

وكانت مشكلة راسبوتين أيضا تتصل اتصالا وثيقا بالكنيسة الروسية الأورثوذكسية التى رحب رؤساؤها وكرادلتها بمجىء راسبوتين إلى العاصمة ووافقوا على قداسته وحلول روح القدس فى شخصه فى بداية ظهوره بينهم ،

ولكنهم عندما ذاعت فضائح راسبوتين سُكْراً وعربدة وممارسة لخطيئة الزنا على نطاق واسع ، حاولوا جاهدين إقصاءه عن الكنيسة وعن زمرة رجال الكنيسة وعن البلاط القيصرى وعن العاصمة . وحاول رئيس الكنيسة فى أكثر من مقابلة مع القيصر نيقولا الثانى أن يحصل على موافقته على إبعاد راسبوتين عن القصر الإمبراطورى وعن الكنيسة وعن العاصمة ، ولكنه كان يفشل دائما فى مسعاه .

ولكن الصحافة – على الرغم من تحذير البلاط القيصرى للصحافة – كانت هى التى فجرت وأضرمت النيران فى مشكلة راسبوتين عندما صدرت المقالات الصحفية متضمنة لفضائح راسبوتين ، وتحدثت الصحف الروسية عن وجود علاقة جنسية بين راسبوتين وبين القيصرة ألكساندرا نفسها ، ونشرت خطابا حصل عليه أحد الصحفيين من راسبوتين شخصيا . وكان الخطاب صادرا من القيصرة ألكساندرا إلى راسبوتين تقول له فيه ما يلى :

«يا أستاذى المحبوب الذى لا يُنْسَى تذكر وضَعْ فى اعتبارك دائما كم تكون الحياة شاقة بدونك ، إن روحى لتهدأ، وإن جسمى ليستريح فقط عندما تكون بجوارى يا أستاذى . إننى عندما تكون أنت بالقرب منى أستطيع أن أقبِّلَ يدك ، وأستطيع أن أريح رأسى على كتفك المبارك . آه ، كم أشعر بتلاشى وزن وثقل جسمى عندئذ ، وأنا أتمنى عندئذ شيئا واحدا هو أن يستغرقنى النوم إلى الأبد وأنا ألقى برأسى على كتفيك وألقى بجسمى بين ذراعيك يا لها من سعادة تغمرنى عندما أشعر بوجودك بالقرب منى ! أين أنت الآن ؟ إلى أين ذهبت ؟ آه! إننى حزينة جداً وقلبى تحرقه الأشواق .... هل ستكون بالقرب منى مرة ثانية فى القريب العاجل ؟ تعال بسرعة . إننى فى انتظارك ، وأنا أبذل كل كيانى من أجلك . إننى أطلب منك بركاتك المقدسة Your Holy Blessings وأنا أقبِّلُ أياديك المباركة Your Blessed Hands أنا أحبك إلى الأبد» .

وسواء كان هذا «الحب إلى الأبد» مشوبا بالخيانة الزوجية بين القيصرة ألكساندرا شخصيا وبين راسبوتين أو كان حبا غير مشوب بالخيانة الزوجية بينهما ، فإن نشر رسالة القيصرة فى إحدى الصحف على هذا النحو يصرح بوضوح ويبدى بما لايدع مجالاً للشك فى وجود شبح الخيانة الزوجية بين القيصرة ألكساندرا وبين راسبوتين ، فضلا عن أن أى صحفى لايجرؤ على نشر مثل هذه الرسالة الخطيرة مالم يكن لديه أصلها بخطِ القيصرة ألكساندرا نفسها

ومن المعروف أن الصحفى الذى قام بنشرها ، وهو فى الأصل رجل دين ، قسيس، اسمه« سرجى تروفاييف» عمل بالصحافة تحت اسم مستعار هو «إليادور» كان يرتبط مع راسبوتين بعلاقة صداقة وثيقة ثم انقلب ضد راسبوتين بعد أن ذاعت وشاهد بنفسه فضائح راسبوتين ، فأصبح من أقوى المطالبين بالتخلص من راسبوتين حفاظا على الأمل فى إنقاذ روسيا من الفساد .

وعندما يتم نشر مثل هذه الفضائح فى الصحف الروسية بين أفراد الشعب الروسى وغالبيتهم من الفقراء البائسين المطحونين تحت وطأة مطالب العيش الضرورية فى ظروف ثورية امتد فيها العمل السرى الشيوعى إلى حد انتصار سياسة العنف المسلح ضد الدولة بقيادة البلاشفة وهم الجناح المتطرف المنادى بسياسة العنف ضد الدولة ، وعندما يصل العنف إلى حد اغتيال وزير الداخلية الروس نفسه «بيتراستوليبن Peter Stolypin» وعندما يكون تعليق الإمبراطورة ألكساندرا على اغتيال وزير الداخلية ولأنه كان من المناوئين لنفوذ راسبوتين هو قولها للدوق الكبير«ديمترى باڤلوڤيتشن Grand Duke Demetri Pavlovich» : «إن أولئك الذين أساءوا إلى «صديقنا Our Friend» ليس لهم الحق فى أن يأملوا فى حماية الله لهم» وكأنما كان اغتيال وزير الداخلية انتقاما إلهيا منه لأنه كان لا يؤمن مثلها بقداسة راسبوتين وكان يناصب راسبوتين العداء الصريح، وعندما تصل الأمور فى روسيا إلى هذا الحد بصدد شخص فلاح

روسى مثل راسبوتين تكون المأساة الخاصة بهذا الفلاح الروسى راسبوتين قد وصلت آمادا تزلزل كيان الدولة القيصرية كلها ، زلزالا يصل إلى حد الخطورة المدمرة .

ولقد رصد سفراء الدول الأجنبية فى روسيا هذا الزلزال المدمر الذى تسبب فيه راسبوتين إذكتب السفير البريطانى فى تقريره ذات ليلة مايلى :

«لقد ذهبت إلى مسرح «يار Yar» وهو أفخم المسارح الليلية فى موسكو مع بعض الزائرين الإنجليز . وبينما كنا نستمتع بالعزف الموسيقى فى الصالة الرئيسية ترامت إلى أسماعنا أصوات ضجة منبعثة من إحدى المقصورات الخاصة . صيحات نساء بصوت عال ، وصوت لعنات وشتائم تصدر عن أحد الرجال ، وأصوات تحطيم زجاج وصَفْقِ أبواب بعنف . وهرع عمال المسرح يصعدون درجات السلم ، واستدعى مدير المسرح رجال الشرطة ... ولكن استمرت الضجة ... واستمر زئير الصيحات ... وكان سبب هذا الاضطراب هو راسبوتين الذى كان مخمورا إلى حد السكر الشديد وفقدان الوعى تماما ، ولم يستطع رجال الشرطة ، ولم تستطع إدارة المسرح كبح جماح هياجه ، ولم يجرؤ أحد على المساس به» .

كان راسبوتين قد صدر عنه كثير من التصرفات المشينة لم يشهدها السفير البريطانى من مكانه بالمسرح فى تلك الليلة . كان راسبوتين قد حطم الأثاث الموجود فى مقصورته ، وكان قد حاول أن يغتصب إحدى النساء المرافقات له ويعتدى عليها جنسيا داخل المقصورة . وعندما وصل رجال الشرطة عنده ، فاجأ راسبوتين الجميع بخلع سرواله وعرض على الجميع عضو الذكورة وقد أمسكه بيده ، وأخذ يصيح قائلا : إنه كان دائما يتصرف على هذا النحو فى حضور القيصر نيقولا الثانى نفسه ، وأنه كان يتصرف على هذا النحو أيضا عندما كان

يمارس الاتصال الجنسى مع «البنت العجوزة The old Girl" وهى إشارة إلى الإمبراطورة ألكساندرا نفسها "The Tsarina" وعندما نجح رجال الشرطة فى السيطرة على راسبوتين وإخراجه من المسرح ، لم يُبْد «الفلاح القديس» أى كلمة تدل على ندمه على مسلكه على ذلك النحو الفاضح المشين ، بل كان يهدد ويتوعد قائلا : «أنا سأنتقم منكم!».

وكان من الطبيعى أن تصل هذه المعلومات الفاضحة الخطيرة المتصلة بالبلاط القيصرى وبشخص القيصرة إلى مسامع وزير الداخلية الجديد دزهنكوڤسكى DZhunkovesky وضمنها الوزير تقريرا مكتوبا وذهب بنفسه به إلى القيصر الروسى نيقولا الثانى الذى غضب من راسبوتين غضبا شديدا واستدعاه لمقابلته وذكر له ما تضمنه تقرير وزير الداخلية فأنكر راسبوتين كل شىء متعللا بأن العاملين فى وزارة الداخلية يكرهونه ... وعلى كل حال أمر القيصر نيقولا الثانى راسبوتين أن يرحل عن سان بطرسبرج وعن موسكو ليعود إلى موطنه الأصلى فى قرية بوكروڤسكى فى إقليم توبولسك.

وعندما ذهب ضباط الشرطة إلى مسكن راسبوتين لكى يشرفوا على مغادرة راسبوتين لمحل إقامته قال لهم راسبوتين : «لقد انتهى وزير داخليتكم دزهنكوڤسكى». ومن المدهش أنه قد تم بالفعل طرد وزير الداخلية دزهنكوڤسكى من الخدمة فى سبتمبر ١٩١٥م! وعاد راسبوتين بعد قليل ليمارس حياته بكل فضائحها فى موسكو وسان بطرسبرج !

وعندما يتسبب راسبوتين فى كل هذه الفضائح ، لم يعد شأن الفلاح الروسى راسبوتين صاحب القداسة المزعومة محصورا على نحو سرى داخل

البلاط القيصرى لأن وجوده فى البلاط القيصرى ضرورى ولازم للحافظ على حياة ولى العهد ، الوارث الوحيد الذكر بين أربع بنات ، بل أصبحت مشكلة راسبوتين مشكلة سياسية فى ظل هياج شعبى ثورى يلجأ إلى أساليب العنف ضد نظام الحكم ، وفى ظل اهتمام شعبى مليء بالغضب والسخط ، وفى ظل احتجاج عنيف من أعضاء الدوما ، البرلمان الروسى ، وفى ظل معارضة قوية من أمراء أسرة رومانوف الحاكمة، وفى ظل أحداث وتطورات الحرب العالمية الأولى!

وفى عام ١٩١٥ ، أثناء الحرب العالمية الأولى قرر القيصر نيقولا الثانى أن يبتعد عن العاصمة ويتفرغ لإدارة شئون الحرب ، فترك موسكو وسان بطرسبرج، وأقام فى إحدى مدن إقليم «موجيلى Mogiley» على مسافة مئات الأميال من العاصمة ، واضطربت الحكومة الروسية إلى حد الانهيار الوشيك طوال عام ونصف العام بسبب السياسة الخرقاء التى كانت تمارسها القيصرة ألكساندرا الواقعة تحت تأثير رجل واحد هو راسبوتين ، وبلغ التخبط فى إدارة شئون الحكومة أقصى مداه ، وكان كل شخص فى العاصمة يدرك أن راسبوتين هو القوة الحقيقية وراء سلطات العرش فى العاصمة الروسية .

وكانت القيصرة ألكساندرا ترسل الخطابات تباعا بانتظام إلى زوجها من العاصمة ليكون على اتصال دائم بتوجيهات وإرشادات القديس راسبوتين أثناء انهماك القيصر فى إدارة دفة الحرب من مكان بعيد عن العاصمة قريب من ميادين قتال الجيش الروسى . كانت تكتب إليه مثلاً فى رسائلها إليه : «لا ترتب ولا تشك أبدا فى صدق وولاء وإخلاص وقداسة «صديقنا Our Friend» إن راسبوتين يضع مصلحتك ومصلحة روسيا فى سويداء قلبه . إن الله

لم يرسله إلينا دون قصد وعبثا دون هدف يقصده الله إذ جرت مشيئة الله بالخير لنا فأرسل راسبوتين إلينا فى هذه الأوقات العصيبة . كل المطلوب منا هو أن ننتبه إلى ما يقوله لنا . إن كلماته ليست بدون معنى أو مغزى . والدوافع إلى الانتفاع بصلواته ودعائه إنما هى دوافع عظمى ! » .

ولم يقتصر أمر تدخل راسبوتين فى شئون روسيا على مجريات شئون الحكومة فى العاصمة الروسية ، ولا على الأوضاع العسكرية ومسار المعارك وتحديد مواعيد بدء هذه المعارك ، بل امتد تأثير راسبوتين أيضا إلى علاقات روسيا الدولية مع حلفاء روسيا فى الحرب على وجه الخصوص كما يتبدى ذلك فى رسالة بعثت بها القيصرة ألكساندرا إلى زوجها تقول له فيها : «إن راسبوتين يرجوك أن ترسل برقية إلى ملك الصرب Serbia لأن راسبوتين يثق بأنهم سيبيدون أعداءنا . ولذلك فأنا أرفق الورقة التى تتضمن توصية راسبوتين بذلك مع رسالتى لكى تستخدم نص كلماتها فى البرقية إلى ملك الصرب . وتستطيع أن تصوغ فحوى التوصية بكلماتك مع الاختصار بطبيعة الحال » . مما يدل على أن توصية راسبوتين كانت مكتوبة بكثير من الإسهاب ، وكانت حافلة بالتفاصيل .

وكانت الإمبراطورة ألكساندرا ترسل إلى زوجها أيضًا طرودا بريدية تحوى أشياء غريبة باركها راسبوتين شخصيا مثل سمكة محنطة أو طائر محنط ، كما أرسلت إليه مشطا كان راسبوتين يستخدمه فى ترجيل شعر رأسه لكى يستخدمه القيصر نيقولا الثانى قبل دخوله فى مناقشات مهمة مع قادته ومستشاريه العسكريين ، وقبل أن يتخذ بشأن الحرب أى قرارات مهمة .

ولقد شاعت أخبار تخريب راسبوتين للدولة الروسية فى كل أنحاء روسيا وبلغت أقصى ذراها فى عام ١٩١٦ عندما تقلد ألكساندر بروتوبوبوف Al-exander Protopopov وزارة الداخلية وكان متخاذلا كل التخاذل إزاء نفوذ القيصرة ألكساندرا وراسبوتين فى شئون الحكومة الروسية إذ إنه كان مدينا بفضل تقلده لمنصب وزير الداخلية لنفوذ راسبوتين لدى القيصرة ألكساندرا التى كانت قد كتبت إلى القيصر رسالة تقول له فيها : «إن راسبوتين يرجوك بشدة وإصرار أن تُعَين بروتوبوبوف وزيرا للداخلية » فأصدر القيصر مرسوما بتعيين بروتوبوبوف وزيرا للداخلية فى سبتمبر ١٩١٦ .

وبعد قليل ، كانت القيصرة ألكساندرا تقيل بعض الوزراء ، وتعين غيرهم دون الرجوع إلى القيصر أو محاولة استصدار أمر منه ، وكانت تكتفى بأن تخطر زوجها الإمبراطور بقرار تغيير هذا الوزير أو ذاك وتشفع هذه الإخطارات بقولها: «لقد أوصى راسبوتين بذلك !» .

وعبثا حاول بعض كبار أمراء أسرة رومانوف أن يلفتوا نظر القيصر نيقولا الثانى إلى خطورة ما يجرى فى موسكو وفى سان بطرسبرج ، فلقد كان القيصر لا يصغى إلى نصائحهم . وكتب إليه الدوق الأكبر نيقولا ميخائيلوفتش Grand The Duke Nicholas Michaliovich وهو ابن عم القيصر نيقولا الثانى بالفعل رسالة طويلة شرح له فيها خطورة تصرفات القيصرة ألكساندرا وراسبوتين وتدخلهما فى أعمال الحكومة وخطورة ذلك فى زعزعة استقرار روسيا ، ولم يفعل القيصر نيقولا الثانى شيئا بصدد هذه الرسالة سوى أن أرسلها إلى زوجته القيصرة ألكساندرا بكامل محتواها دون أن يحذف منها كلمة واحدة . وبالتالى

كتبت إليه زوجته رسالة تقول له فيها : «إنه عدو وخصم لدود لى ولرجل الله راسبوتين . ألم تخطره بأنه إذا عاد إلى المساس بشخصى أو المساس بشخص راسبوتين ، فإنك ستقوم باتخاذ اللازم نحو نفيه إلى سيبيريا ؟ إن تصرفه يرقى إلى الخيانة العظمى . إنه يتحدث عنى بسوء طوال اثنتين وعشرين سنة !» .

وبحلول شهر نوفمبر سنة ١٩١٦ كانت الدولة الروسية تقف على شفا الانهيار التام تحت وطأة عامين حافلين بالهزائم للجيوش الروسية فى ميادين الحرب العالمية الأولى ، وتحت وطأة تغييرات متلاحقة فى الوزراء وخاصة وزراء الداخلية والدفاع مما جعل الحكومة الروسية فى حالة من الفوضى الشاملة . وأفضى الفشل فى الهجوم على بروسيلوف Brusilov فى النمسا إلى انخفاض الروح المعنوية للشعب الروسى وإلى اليأس من تحقيق أى انتصارات مفيدة للروس فى الحرب العالمية الأولى فى مجمل تطوراتها . واهتزت ثقة الشعب الروسى فى قيادة القيصر نيقولا الثانى للدولة . واهتزت ثقة الشعب الروسى فى الجيش الروسى . واهتزت ثقة الشعب الروسى فى وزراء الدولة جميعا . واهتزت ثقة الشعب الروسى فى أعضاء البرلمان الروسى (الدوما) . ووقفت روسيا على شفا الانهيار، وشاعت بين كل طبقات الشعب الروسى إشاعة مفادها أن كل الفساد سببه رجل واحد هو راسبوتين . ولم يعد راسبوتين مجرد فلاح روسى ، ولا مجرد قديس يتحرك بطريقة سرية فى ربوع البلاط القيصرى ، ولم يعد مجرد فاسق يمارس تصرفاته الفاسقة بعيدا عن شئون الحكم فى روسيا ، ولكنه كان السبب الرئيسى فى كل ما يعانى منه الشعب الروسى من فساد فى كل منحى من نواحى الحياة . واستحق راسبوتين غضب وسخط الجميع : ثوار وغير ثوار ، أبناء عامة الشعب وأبناء النبلاء على حد سواء .